بسم الله الرحمان الرحيم

تعليم الموسيقى في تونس

تعليم الموسيقى في قطر عربي كتونس يمكن اعتباره نموذجا لكل البلاد العربية الأخرى في جميع الحالات و حتى سنة ثلاثين من القرن الماضي كان تعليم الغناء مرتبطا بالطرق الصوفية و اشهر طريقة في ذلك هي العزوزية نسبة إلى الولي الصالح" سيدي علي العزوز" دفين مدينة زغوان وله مقام بتونس العاصمة يدرس فيه الغناء التقليدي المعروف "بالمالوف" الذي يقال أنه من اصل أندلسي و قد تعرفت سنة 1962 من القرن العشرين على شيخ طاعن في السن كان في العشرة الاولى بعد المائة وهو الشيخ" الصحبي المصراطي" بمدينة الكاف قال لي انه خريج الطريقة العزوزية و كان الشيخ محمد المملوك الذي وصلت سنه إلى مائة و ثلاثين عام أستاذه ولم يقبل الشيخ المصراطي.الحديث معي إلا بعدما أجبته على عدة أسئلة منها معرفتي و حفظي لبعض قطع من التراث . كما تعرفت على شيخ آخر في مدينة طبربة عندما عينت قاضيا بها و هو الشيخ"عثمان قواو" تجاوز الثمانين في سنه كان يزورني كل مساءآخر الدوام ونتحاور حول الموسيقى العربية. و التعليم في المدرسة العزوزية ومثيلاتها كان مرتكزا علىقبول الشاب بعد اختبار صوته ضمن المجموعة"مع الردادة" الذين يعيدون الجمل الغنائية التي تؤديهاالعناصر الممتازةالتى تعرف "بالقوالة" الذين يجتمع فيهم حسن الصوت مع دقة الحفظ و الأداء وبعد سنة أو سنتين يقع اختبار "الردادة " للارتقاء لصنف "القوالة" واختبار القوالة للارتقاء لصنف المنشدين الذين الذين يتفردون بالغناء و الارتجال و الحصول بمقتضى ذلك على لقب " الشيخ" و هذا المنهج متبع في أغلب الطرق الصوفية الأخرى التي تقيم حفلا اسبوعيا بمقام شيخهم يحضره أهل الحي مصحوبين بأولادهم لتعويدهم على سماع الفن و محاولة متابعة اعادات الجمل تكوينا للملكة الفنية التي ترشحهم للاختبار لصنف الردادة كما ذكرنا.

اما تعليم العزف فكان يجري في النوادي و في البيوت و يقتضي أن يعيد التلميذ الجمل التي يؤديها أستاذه مرات حتى يتأكد حفظه لها فيمر الى الجملة التي تليها وهكذا دواليك.وقد كان والدي الشيخ عبد الرحمان ضمن الأساتذة الذين يدرسون بهذه الطريقة. وفي مطلع القرن الثامن عشر ميلادي قام ثالث ملوك الدولة الحسينية "محمد الرشيد باى" بتاسيس مدرسة موسيقية بقصره يتفقد أعمالها في حفل أسبوعي يقام بالقصر وقد استمرت المدرسة مع من تلاه من الملوك إلى المرحوم محمد الحبيب باى الذي تولى بين سنتي 1922 و 1929ميلادي ولما تولى أحمد باى بعده اكتفى بدعوة أشهر الفنانين لاقامة حفل أسبوعي مساء كل يوم ثلاثاء و الملك المنصف الذي تلاه سنة1942 شغلته الظروف السياسية و لم تطل مدته حيث عزل و نفي إلى الجزائر ثم فرنسا في ربيع سنة1943

وأخذ تعليم الموسيقى العربية صبغته الرسمية مع تأسيس الكلية العسكرية في منتصف القرن التاسع عشر ولكن اعتمدت علىالآلات النحاسية التي لا تؤدي إلا الدرجات و أنصافها مسيئة بذلك أداء الموسيقى العربيةالتي يعتمد أغلبها على أرباع الدرجات وقد استمرت هذه الاساءة في أغلب بلداننا العربية وفي مصر دخلت بكل أسف الى حفلات الزفاف حتى الآن رغم قيام أستاذنا الشيخ " علي الدرويش" الحلبي بإنارة السبيل في كل من الشام والعراق و مصر و تونس.

ولما عهد إلي بادارة الفنون بتونس سنة 1957 بعيد الاستقلال ركزت الاعمال على مواصلة ما ركزه الأستاذ الشيخ علي الدرويش و جعلت دروس التعليم العام على تلقين الاناشيد المدرسية في المرحلة الابتدائية مع تطبيقها على مقامات وايقاعات عربية مبسطة وفي التعليم الثانوي فتحت باب الدروس النغمات إيقاعات المتداولة مع درس و حفظ شواهد لها من التراث و ما لحن على منهجه واعطاء دروس في التاريخ الموسيقى العربية و التفتح على ما تيسر من الموسيقى الاجنبية و تاريخها و اعددت ثلاث كتب له بها قواعد المقامات و الايقاعات مع تمارين للترقيم قدمنا ضمنها قطعا تراثية وحديثة على غرارها و يختار الأستاذ احسن التلاميذ يشكل بهم فرقة موسيقية غنائية تتدرب اربع ساعات أسبوعيا على برنامج يوزع عليهم فيه قطع من التراث التقليدي و كذلك التراث الشعبي للمنطقة التى توجد فيهاالمدرسة و بعض القطع الحديثة المتأصلة نشجع فيها الأساتذة والتلاميذ على الإنتاج في التراكيب العربية وفي المعاهد و المدارس المتخصصة نركز على حفظ نماذج من التراث الموسيقي والغنائي مع الاملاء الموسيقي و درس مختلف التراكيب في المشرق و المغرب العربيين و حفظها ونبين اهم التراكيب العربية و نجعل حصصا لاستماعها مسجلة و درس تاريخ الموسيقى العربية و الغربية مع التركيز على العربية.

وفي تعليم الآلات الفنا تمارين في اكبر قدر من المقامات العربية و اشهر ايقاعاتها وقد قام صديقنا الاستاذ عبد المنعم عرفه استاذ الجيل المصر ي بجعل التمارين ترتكز على ما يعرف بالدواليب(جمع دولاب).التى كانت تستعمل مقدمات لاغاني التى تشترك معها في المقام و بعد ذلك نتدرج بالتلاميذ عبر أشهر المعزوفات العربية و حتى التركية وهذا ما قام به الاستاذ عبد المنعم عرفه و نشكل منهم فرقة تتدرب و تقدم عروضا في نطاق .المعهد نجري بينها مسابقات محلية ثم على مستوى الولايات. و الممتازة منها ترشح للمسابقة الوطنية كما ندرب التلاميذ على البحث و النقد و نناقش أعمالهم و ندربهم على تأليف جمل ثم قطع موسيقية.

ويقتضي تعليم الغناء الحث على ابراز الصوت بطبيعته العربية و البعد كل البعد على تقليد الأصوات الغربية و بالاخص (منها الأوبرالية)أو التعلم على مدرسين غربيين وبرهنت التجارب أن الذين سلكوا هذا السلوك أصبحوا يتغنون بكلمات عربية و بأداء خواجاتي لا صلة له بتقاليدنا العربية التي ترتكز على الطرب الذي يملك السا مع و يبعث فيه التأثر و الانسجام مع جميع حركات الغناء فيعرب عن ذلك بكلمات الاكبار و التقدير بالتأوه و ذكر اسم الجلالة على المؤدي من

أعين السوء التي تنزع منه صفة التاثر و التأثير وقد أطنب الامام الغزالي في هذا الموضوع في كتابه "الإحياء" بسن شروط عديدة لنجاح الحفلات العربية و الشرقية عامة،و بعد ذلك فلا بد للمغنين التدرب على جميع المقامات بشواهد من الموشحات و الحرص علىحسن الاداء و التطبيق على الموازين التى يزخر بها التراث العربي الاسلامي كما نحرص على سماعه و حسن أدائه للارتجالات أبرز المطربين و المطربات حتى يصبح ذلك سليقة فيه تمكنه من ذلك مع المقدرة على التصرف الذي يحدث النشوة لدى المؤدي والسامع. أما في العزف فإن هذه المعاني تتدرج في الضياع كلما أكثرنا من عدد العازفين تقليدا للفرق السنفونية ولا ضرورة لنا في ذلك حيث أن موسيقانا موحدة الصوت،كما ندرب المغنين على مقدرة غناء الجمل العربية على مختلف الطبقات الصوتية دون الاحتياج إلى أن تسبق بعزف احدى الآلات كما نسمع في بعض التسجيلات و الحمد لله الآن أصبحت لدينا في جميع أقطارنا العربية و الاسلامية أصوات عديدة ممتازة فلا بد لنا من تدريبها و رعايتها لتتمكن من الأداء الكامل الصحيح كما نحث وسائل الاعلام على الاختيار الصحيح فلا تبث وجها به بعض الجمال اذا كان صوته رديئا كما نحثها على حسن اختيار الاصوات و الابتعاد عن الأصوات المبحوحة. التى بها نشاز كما لا نقبل أداء قطع المطربين السابقين الا إذ امتاز أداء المقلد على المأخوذ عليه.و تسجيلات السابقين ما تزال قائمة و يمكننا سماعها في كل حين و ذلك لحث مطربي الجيل الصاعد على الإنتاج الحديث ليخلدوا أمثال سابقيهم و تلك سنة الحياة. ونشير على البلديات بتكريم أبرز المطربين و المؤلفين و الملحنين العازفين بوضع أسمائهم على الأنهج و الشوارع و على المعاهد ان تسمى أقسامها باسماء أشهر أساتيذ الموسيقى العربية. وما قدمت الاقتراحات. الواردة في البحث إلا بعد ما طبقت أغلبها جريا على ما قام الامام أبي حنيفة من جمع مال و شراء عبد اعتقه قبل حث الناس في خطبة الجمعة على عتق الرقبة كما تلفت الأنظارللعمل على توسيم الفنانين ونورد لكم نكة عن الاستاذ سامي شوا أمير الكمان الذي حصل على وسام الافتخار من تونس و من الاردن وعندما شارك في حفل حضره الملك فؤاد وضع أوسمته على يمين صدره فارسل إليه مدير التشريفات بضرورة وضع الاوسمة على الشمال فأجابه بأنه خصص ذلك المكان "لمولانا"(الملك) الذي الم يوسمه بعد والله يوفق الجميع و السلام